تفسير سورةُ الشعراء
من آية (10) إلى آية (26)
اللقاء الثاني

المعنى الإجمالي من آية (1) إلى آية (9):

ابتدأت السُّورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ؛ وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثون بها!

ثمَّ قال الله تعالى: تلك آياتُ القُرآنِ الواضِحِ، المظهِرِ للحَقِّ.

ثمَّ خاطَب الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُسلِّيه عن تكذيبِ المشركينَ له، فقال: لعلَّك -يا محمَّدُ- مُهلِكٌ نفْسَك غمًّا وأسَفًا؛ بسَبَبِ تَكذيبِ الكافرينَ لك، وعَدَمِ إيمانِهم بدَعوتِك، إنْ نَشَأْ ننَزِّلْ على هؤلاء المشرِكين مُعجِزةً ظاهِرةً مِن السَّماءِ تُلجِئُهم إلى الإيمانِ، فيَنقادوا للحَقِّ مقهورين.

ثمَّ بيَّن سبحانَه ما عليه هؤلاءِ الكافرونَ مِن عنادٍ وجحودٍ، وبيَّن سوءَ عاقبتِهم، فقال: كُلَّما جاءهم قُرآنٌ مُحدَثٌ تَنزيلُه عليك -أيُّها الرَّسولُ- أعرَضوا عنه فلم يُؤمِنوا به، فقد كذَّب هؤلاء الكُفَّارُ بالقُرآنِ الذي جاءهم مِن عندِ الله، فسيأتيهم عاقِبةُ ما كذَّبوا واستَهزؤوا به.

ثمَّ ونبَّههم سبحانَه على غفلتِهم عن التفكُّرِ في هذا الكونِ، فقال: أوَلم يَرَ أولئك المشرِكون إلى ما أنبَتْنا في الأرضِ مِن الأصنافِ الكثيرةِ الكريمةِ الطيِّبةِ النَّافعةِ، إنَّ في ذلك لَدَلالةً على كَمالِ قُدرةِ الله تعالى، وما كان أكثَرُ هؤلاء المشرِكين مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لهو الغالِبُ القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الواسِعُ الرَّحمةِ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعُقوبتِه.

موضوع سورة الشعراء الرئيسيّ هو موضوع السور المكية جميعها تتلخص في العقيدة، وتجمع في عناصرها الأساسية: توحيد الله، والخوف من الآخرة، والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله والتخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين، وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين، وجسم السورة هو القصص.

وإن قصة موسى عليه السلام تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة وإلى طمأنة الرسول -ﷺ- وتعزيته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم، وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل، وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة -وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم. علي الصلابي

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿10﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى تكذيبَ قُرَيشٍ بما جاءَهم مِن الحقِّ وإعراضَهم عنه، ذَكَرَ قصَّةَ موسى عليه السلامُ، وما قاسى مع فرعونَ وقومِه؛ ليَكونَ ذلك مَسلاةً لِمَا كان يَلْقاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن كُفَّارِ قريشٍ؛ إذْ كانت قريشٌ قد اتخذَتْ آلهةً مِن دونِ اللهِ، وكان قومُ فرعونَ قد اتَّخَذوه إلهًا، وكان أتْباعُ مِلَّةِ موسى عليه السلامُ هم المجاوِرينَ مَن آمَنَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلذا بَدَأَ بقصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ثمَّ ذَكَر بعدَ ذلك ما يأتي ذِكْرُه مِن القَصَصِ.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ كلَّم اللهُ موسى وأمَرَه أن يذهَبَ إلى الظَّالِمين لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي، والظَّالِمين لبني إسرائيلَ باستعبادِهم واضْطِهادِهم وسَومِهم سوءَ العَذابِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [القصص: 4].

وقال سُبحانَه: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [النازعات: 15 - 17].

قال ابن عثيمين: دليلٌ على فضْلِ اللهِ سُبحانه وتعالى على الخَلقِ لإرسالِه الرُّسُلَ؛ فإرسالُ الرُّسُلِ دَليلٌ على فضْلِ اللهِ على الخَلْقِ، وعنايتِه بهم؛ لأنَّ الخلْقَ مهما أُوتوا مِن ذكاءٍ لا يُمكِنُهم أنْ يُدرِكوا ما يَجِبُ للهِ سُبحانَه وتعالى على التَّفصيلِ، والعاقِلُ يُدرِكُ ما يجِبُ لله على وَجهِ الإتمامِ، فإدراكُه أنَّ له الكمالَ المطلَقَ، وأنَّه المستحِقُّ العبادةَ على وَجهِ التَّفصيلِ لا يمكِنُ إلَّا عن طريقِ الرُّسُلِ

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿11﴾

(قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) أي: اذهَبْ إلى القَومِ الظَّالمينَ، وهم قَومُ فِرعونَ القِبطُ، فقُلْ لهم: ألَا تتَّقونَ اللهَ وتخافونَ عِقابَه، فتُؤمِنوا به وتَتركوا ظُلْمَ عِبادِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [النازعات: 17 - 19].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿12﴾

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) أي: قال موسى: ربِّ إنِّي أخافُ أن يكَذِّبَني فِرعَونُ وقَومُه، ولا يصَدِّقوا أنِّي رَسولُك إليهم. موسوعة التفسير

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ ﴿13﴾

(وَيَضِيقُ صَدْرِي) أي: ويَضيقُ صَدري بسَبَبِ تَكذيبِهم إيَّاي، فلا ينشَرِحُ. موسوعة التفسير

(وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي) أي: ويَنحَبِسُ لساني عندَ مُخاطَبةِ فِرعَونَ، فلا أستطيعُ أن أُبِينَ له ما أرسَلْتَني به. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي [طه: 25 - 28].

(فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) أي: فأوحِ -يا رَبِّ- إلى أخي هارونَ؛ لِيَكونَ رَسولًا معي فيُعينَني. موسوعة التفسير

الإخوان عضد ومعين وعون من الله -تعالى- على نوائب الدهر، وظلال يستظل به، وساعد يعتمد عليه، ألم تر كيف يشد الأخ ساعد أخيه ويؤازره، ويقف معه في السراء والضراء، وفي كل نائبة ومحنة وضائقة، وهو محل الثقة، ومكمن السر والستر، وهو أقرب من كل قريب، وأوثق من تودع عنده الأمانات. إنه عضيد أصيل لا يلين ولا يتراخى ولا يتخلى ولا يدبر ولا يتولى؛ لأنه يعلم أن أخاه جزء منه، فلا يمكن أن يتخلى المرء عن أجزائه وأعضائه. يحتاج الأخ إلى أخيه حتى في أصعب المهمات، وأثقل النازلات، فهذا موسى -عليه السلام- يحتاج للمعاون بعد الله -تعالى-، يعينه على تبليغ رسالة ربه، ويدفع عنه بلاء القوم، ويخفف عنه قسوتهم وكبرياءهم، فيسأل ربه -عز وجل- أن يجعل له ومعه أخاه هارون وزيرا، كما قال تعالى: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى [طه: 29 - 36].

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿14﴾

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) أي: ولِقَومِ فِرعَونَ دَعوى ذنْبٍ يَطلُبونَني بها؛ لِقَتلي منهم رجُلًا، فأخشَى أن يقتُلوني به. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (قوله: فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ليس هلَعًا وفرَقًا مِن الموتِ؛ فإنَّه لَمَّا أصبَح في مقامِ الرِّسالةِ ما كان بالذي يُبالي أن يموتَ في سبيلِ الله، ولكِنَّه خَشِيَ العائقَ مِن إتمامِ ما عُهِدَ إليه ممَّا فيه له ثوابٌ جزيلٌ ودرجةٌ عُلْيا).

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ﴿15﴾

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا) أي: قال اللهُ لموسى: لن يَقتُلَك قَومُ فِرعَونَ، فاذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إليهم بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِكما. موسوعة التفسير

قال ابن عطية: (أُمِرَ موسى وهارونُ بخطابٍ لموسى فقط؛ لأنَّ هارونَ ليس بمُكلَّمٍ بإجماعٍ، ولكِنْ قال لموسى: اذهَبا، أي: أنت وأخوك، والآياتُ تعُمُّ جميعَ ما بعَثَهما الله به، وأعظَمُ ذلك العصا... ولا خِلافَ في أنَّ موسى عليه السلامُ هو الذي حمَّله اللهُ أمرَ النبوَّةِ كُلِّها، وأنَّ هارونَ كان نبيًّا رسولًا، مُعِينًا له وزيرًا).

كما قال تعالى: قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [القصص: 35].

(إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) أي: إنِّي معكما بالتَّأييدِ والحِفظِ، أسمَعُ ما ستَقولانِ لِفرعَونَ وقَومِه، وما سيَرُدُّون به عليكما. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [طه: 45، 46].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿16﴾

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: فَأْتِيا -أنت وهارون- إلى فِرعَونَ فقُولَا له: إنَّا مُرسَلانِ إليك مِن خالِقِ ومالِكِ ومُدَبِّرِ العالَمينَ. موسوعة التفسير

كما قال سُبحانَه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الزخرف: 46].

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿17﴾

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي: إنَّا رَسولُ رَبِّ العالَمينَ إليك بأنْ تُطلِقَ -يا فِرعَونُ- بني إسرائيلَ مِن قَهرِك وعَذابِك، وتتركَهم يسيرونَ معنا إلى الأرضِ المقَدَّسةِ؛ لِيَعبُدوا اللهَ ويُقيموا دينَه. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الأعراف: 104-105].

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿18﴾

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) أي: قال فِرعَونُ لموسى: ألم نَقُمْ بتربيتِك منذُ كنتَ صَغيرًا في المهدِ. موسوعة التفسير

(وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) أي: ومَكثْتَ عندَنا سِنينَ كثيرةً مِن عُمُرِك تتنعَّمُ بخَيراتِنا. موسوعة التفسير

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿19﴾

(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ) أي: وقتلْتَ رجُلًا منَّا مِن القِبطِ كما تَعلَمُ. موسوعة التفسير

(وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) أي: والحالُ أنَّك مِن الجاحِدينَ لنِعمَتِنا عليك؛ حيث جازَيْتَنا على تَربيتِنا لك بقَتلِ رجُلٍ مِنَّا. موسوعة التفسير

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿20﴾

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) أي: قال موسى مُجيبًا لفِرعَونَ: قتلتُ القِبطيَّ خَطأً وأنا مِن الجاهِلينَ، قبْلَ أن يُوحيَ اللهُ إليَّ بالرِّسالةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [القصص: 15، 16].

قال القرطبي – رحمه الله تعالى –: نَدِمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى ذَلِكَ الْوَكْزِ الَّذِي كَانَ فِيهِ ذَهَابُ النَّفْسِ، فَحَمَلَهُ نَدَمُهُ عَلَى الْخُضُوعِ لِرَبِّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَنْبِهِ قَالَ قَتَادَةُ: عَرَفَ وَاللَّهِ الْمَخْرَجَ فَاسْتَغْفَرَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَدِّدُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ، حَتَّى إِنَّهُ فِي الْقِيَامَةِ يَقُولُ: إِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا. وَإِنَّمَا عَدَّدَهُ عَلَى نَفْسِهِ ذَنْبًا وَقَالَ:" ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي" مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَقْتُلَ حَتَّى يُؤْمَرَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُشْفِقُونَ مِمَّا لَا يُشْفِقُ مِنْهُ غَيْرُهُمْ. قَالَ النَّقَّاشُ: لَمْ يَقْتُلْهُ عَنْ عَمْدٍ مُرِيدًا لِلْقَتْلِ، وَإِنَّمَا وَكَزَهُ وَكْزَةً يُرِيدُ بِهَا دَفْعَ ظُلْمِهِ. قَالَ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ. وَقَالَ كَعْبٌ: كَانَ إِذْ ذَاكَ ابْنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ قَتْلُهُ مَعَ ذَلِكَ خَطَأً فَإِنَّ الْوَكْزَةَ وَاللَّكْزَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَقْتُلُ» انتهى.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿21﴾

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ) أي: فخرجتُ مِن بينِكم هاربًا منكم؛ خَوفًا مِن أن تقتُلوني بذلك القِبطيِّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [القصص: 20، 21].

(فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا) أي: فأعطاني ربِّي عِلمًا. موسوعة التفسير

قال الألوسي: (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا أي: نبوَّةً أو عِلمًا وفَهمًا للأشياءِ على ما هي عليه).

(وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) أي: وجعَلَني ربِّي مِن جُملةِ رُسُلِه؛ لأُبلِّغَكم رسالتَه. موسوعة التفسير

وُلِد موسى –عليه الصلاة والسلام– في سنةٍ يُقتَل فيها الذكور من بني إسرائيل بأَمرٍ من فرعون ملك مِصر؛ إذ كان يقتل المواليد من الذكور في سنةٍ، ويتركهم أحياء في سنةٍ أخرى، وكان موسى قد وُلِد ولم يعلم أحد بولادته، فاهتدت أمّه من الخوف إلى أن تُلقي رضيعَها في اليمّ؛ وهو على قول المفسِّرين جميعهم نهر النيل، وذلك بعد جَعْله في تابوتٍ، وذلك بأَمرٍ من الله، مع طمئنته لها بأنّه سيُرجعه إليها سالماً مُعافىً، وسار الماء بموسى –عليه السلام– إلى أن وصل إلى أيدي جواري قصر فرعون، فأخذنه إلى امرأة فرعون؛ آسية بنت مُزاحم التي طلبت من زوجها فرعون أن يُبقيَ عليه معها؛ ليتّخذوه ولداً لهم، فينفعهم حين كِبر سِنّهم، وكانت أمّه قد أرسلت أخته؛ لتتبُّع أمره، وأثره، وكان قد رفض المرضعات جميعهم، فأرشدتهم أخته إلى أمّه؛ لتُرضعَه، وبذلك تحقّق وعد الله –سبحانه– لأمّ موسى بإرجاع ولدها إليها.

دخل موسى –عليه السلام ذات يومٍ إلى المدينة في وقت خُلوّ الناس منها، وصادف رجلَين يقتتلان؛ أحدهما من القِبط، والآخر من بني إسرائيل، فطلب الذي من بني إسرائيل منه النُّصرة، فأجابه موسى، فوكز

القبطّي، وعلى الرغم من أنّ موسى -عليه السلام- لم يقصد قَتله، إلّا أنّ الوَكز صادفَ انتهاء أجله، فمات، ووقع القَتل خطأً، فتوجّه موسى إلى ربّه بالتوبة، والاعتراف بالذَّنب، وطلب المغفرة منه؛ فقد ظلم نفسه بفِعله ذاك؛ إذ كان القتل بسبب شدّة غضبه، وكان بإمكانه تمالك نفسه عند الغضب، فغفر الله له، ثمّ أصبح موسى -عليه الصلاة والسلام- نصيراً وظهيراً للحَقّ وأهله، إلّا أنّ خبر مَقتل القبطيّ على يد موسى لم ينتشر في المدينة؛ لأنّ القَتل وقع وقت الراحة. بقي موسى -عليه السلام- يترقّب ما سيحلّ بأمره، ثمّ لقي الرجل الذي استنصرَه في اليوم السابق يقتتل مع قِبطيّ آخر، فطلب من موسى -عليه السلام- أن ينصره عليه، فزَجَره القِبطيّ عن البَطش والإفساد، وحَثّه على السَّعي في تحقيق التراضي بين الطرفَين، فرفض موسى قَتل القِبطيّ، ثمّ أرشده رجلٌ إلى الخروج من المدينة؛ خوفاً عليه من الانتقام للقبطيّ الذي قَتَله سابقاً، فخرج موسى مُتوجّهاً إلى مدين.

انطلق موسى -عليه السلام- من مِصْر قاصداً مَدْيَن، ونزل في مكانٍ اجتمع الناس فيه؛ للسقاية، ورأى فتاتَين واقفتَين تنتظران سقاية أغنامهما، فأقبل عليهما موسى -عليه السلام-، واستفسر منهما عن سبب وقوفهما، فأجابتاه بأنّهما تنتظران السقاية؛ إذ إنّ أبوهما شيخٌ كبيرٌ لا يقوى عليها؛ فسقى لهما موسى، وقضى حاجتهما، ثمّ توجّه إلى الله -تعالى- بالدعاء والطلب، بينما قصّت الفتاتان على والدَيهما ما حدث معهما، وطلب من إحديهما إحضار موسى؛ لشُكره على فِعله، فطلبت منه المِضيّ معها، وكانت شديدة الحياء، فشكره الشيخ على صنيعه مع ابنتَيه، وكانت قد اقترحت إحداهما استئجار موسى -عليه السلام-؛ للسقاية، فعرض الشيخ على موسى أن يُزوّجه إحدى ابنتَيه مقابل العمل في السِّقاية مدّة ثمانية أعوامٍ، وإن أراد زيادة سنَتَين من عنده، ففَعل موسى، وقضى تلك المدّة كاملةً، ثمّ توجّه عائداً إلى مصر.

عاد موسى -عليه السلام- إلى مصر مع أهله، وأخذ يبحث عن نارٍ ليلاً، فلم يجد، إلى أن رأى ناراً إلى جانب جبلٍ، فسار إليها وحده تاركاً أهله في موضعهم، ثمّ سَمِعَ صوتاً يُناديه حين وصوله إلى موضع النار، فكان الله -سبحانه- يُكلّمه؛ إذ أخبره أنّه ربّ العالَمين، وأنّه اصطفاه؛ ليبلّغَ الناس، ويدعوهم إلى توحيد الله، ويخبرهم أنّ يوم القيامة واقعٌ لا محالة؛ ليُجازى كلّ عبدٍ بما قدَّمَ في حياته، ثمّ سأله ربّه -عزّ وجلّ- عن العصا التي يُمسكها -وهو أعلم بها-، فأجابه -عليه السلام- بأنّه يعتمد عليها في رَعْي الغنم، وأمورٍ أخرى، فطلب منه -سبحانه- إلقاءها، فألقاها، فتحوّلت إلى حيّةٍ تسعى بأمرٍ وتقديرٍ من الله، ففزع موسى، إلّا أنّ الله طمأنَه وأخبره أنّه سيُرجعها كما كانت، ثمّ أمره الله -سبحانه- أن يُدخلَ يدَه في جَيْبِه، فأدخلها، فإذا بها تخرج بيضاء مُنيرةً، فأعادها إلى جيبه، فعادت إلى صِفتها الأولى.

وقد أجرى الله -سبحانه وتعالى- عدّة آياتٍ مُعجزات تُؤيّد رسالة نبيّه موسى -عليه السلام-، ثمّ أمره بالتوجُّه إلى فرعون مُبلِّغاً، وداعياً إيّاه إلى توحيد العبادة لله وحده، واتّباع أوامره، فسأله موسى التيسير،

وانشراح الصدر، وأن يُعينه؛ بإرسال أخيه هارون معه، فاستجاب له -سبحانه-، وبذلك كان موسى رسول الله ومُبلِّغَ أوامره إلى فرعون، وقومه.

وصل موسى إلى أرض مِصْر، والتقى بأخيه هارون، واتّجها إلى قَصْر فرعون الذي أَذِن لهما بالدخول، وبدأ موسى يدعوه إلى توحيد الله، والخضوع له وحده، والتوقُّف عن ظُلم بني إسرائيل، وإرسال بني إسرائيل معهما، فرفض فرعون ذلك، واستخفّ بقَوْل موسى -عليه السلام-، واستصغرَه، وذكّرَه بتربيته ورعايته له، وأنّه قابل ذلك بقَتْل القِبطيّ، فكان ردّ موسى عليه أنّ ذلك لم يكن عن قَصْدٍ، وبيّنَ له أنّه رسول الله إليه مع أخيه هارون، فسألهما عن ربّهما، فأجاباه أنّه الله مالك الملك، وخالق كلّ شيءٍ، فاستخفّ فرعون بجوابهما، واستهان بما قالاه، والتفت إلى قومه؛ مُكذِّباً قَوْل موسى، ومُتَّهِماً إيّاه بالجنون، فكان ردّ موسى أنّ الله خالقُهم، وخالقُ آبائهم، وأظهرَ لهم المعجزات التي أيّده الله بها؛ لتكون دليلاً على صِدقه، فتعجّبَ فرعون ممّا رأى، وطلب رأي قومه ومشورتهم، فأخبروه أنّ موسى وهارون ساحران يريدان الاستحواذ على مُلكه، وإبعاده عن أرضه، وأرشدوه إلى جَمع السَّحَرة، وإبطال سِحرهما.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿22﴾

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي: وتَمُنُّ عليَّ -يا فِرعَونُ- بتربيتِك لي وإنعامِك عليَّ، وقد اتَّخَذْتَ قَومي بني إسرائيلَ عَبيدًا لك، فكيف تَمُنُّ عليَّ بهذه النِّعمةِ أنِ استَعبدْتَ بني إسرائيلَ ولم تَستعبِدْني، فهذه ليست نِعمةً. موسوعة التفسير

وقال ابنُ كثير: (أي: وما أحسَنْتَ إليَّ وربَّيْتَني مقابلَ ما أسأتَ إلى بني إسرائيلَ، فجعَلْتَهم عبيدًا وخَدَمًا، تُصَرِّفُهم في أعمالِك ومشاقِّ رعيَّتِك، أفَيَفي إحسانُك إلى رجُلٍ واحدٍ منهم بما أسأْتَ إلى مجموعِهم؟! أي: ليس ما ذكَرْتَه شيئًا بالنِّسبةِ إلى ما فعلْتَ بهم).

دخل نبي الله موسى وأخوه هارون -عليهما السلام- دخلا أرض مصر نبيَّين مرسلين، يحدوهم الأمل في نجاح مهمتهما، كيف لا؟ وقد طمأنهم ربهما بقوله (لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [طه:46].

وكان من مبشرات هذه المعية الإلهية أن مكنهم الله -تعالى- من اجتياز حرس فرعون بأمان، والوصول إلى قصر الطاغية، وهذا -بلا شك- تمهيدٌ وتيسير لهم من رب العالمين -جل وعلا-.

وكانا خلال مسيرهما يذكران الله -تعالى- ويسبحانه دون فتور؛ امتثالا لوصية الله -تعالى-: (وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي) [طه:42]، فإن ذكر الله أعظم زاد للمؤمن في كل حال في الشدة والرخاء، بل حتى في وسط المعركة والتحام السيوف لا يتوقف لسان المؤمن عن ذكر الله تعالى، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الأنفال:45].

والتقى الطرفان، موسى وأخوه هارون في مواجهة فرعون وملئه، فمن يتكلم؟ وإذا بموسى -عليه السلام- ينطق أمام عدوه بفصاحة ووضوح دون حاجة إلى فصاحة أخيه هارون، وذلك من لطف الله -

تعالى- به -عليه السلام- لما دعاه من قبل: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) [طه:27]، فاستجاب له ربه وحل عقدة لسانه، فيا لَلطف الله!

وابتدأ موسى بتعريف نفسه بصفته الجديدة، وأنه اليوم يقف أمام فرعون، بصفته رسولا لله! (يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف:104]، وناداه بقوله: (يَا فِرْعَوْنُ)! ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان، نداء إكرام وتقدير؛ لأن الله -تعالى- وصاهما بقوله (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) [طه:44].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿23﴾

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) أي: قال فِرعَونُ مُنكِرًا مَعرِفتَه باللهِ: وما ربُّ العالَمين الذي تَزعُمُ -يا موسى- أنَّه أرسَلَك، وأنَّه يَستَحِقُّ العبادةَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى [طه: 49].

كما قال تعالى: فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [النازعات:24].

وقال سُبحانَه حاكِيًا قَولَ فِرعَونَ: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي [القصص: 38].

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿24﴾

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) أي: قال موسى: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومالِكُهنَّ ومُدبِّرُهن وما بيْنَهنَّ، فإن كنتُم تُوقِنون حقًّا فأيقِنوا بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ؛ لظهورِ ذلك بلا خَفاءٍ. موسوعة التفسير

قال ابنُ تيميَّةَ: (خاطَبه موسى بما بيَّن له أنه أعرَفُ مِنْ أنْ يُنكَرَ، وأعظمُ مِنْ أنْ يُجحَدَ).

كما قال تعالى: قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [إبراهيم: 10].

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ﴿25﴾

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) أي: قال فِرعَونُ للَّذين حوْلَه مِن أشرافِ قَومِه: ألَا تَستَمِعون إلى ما يقولُه موسى، وتَعجَبون مِن قَولِه. موسوعة التفسير

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿26﴾

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) أي: قال موسى: اللهُ الذي أدعوكم إلى عبادتِه هو ربُّكم الذي خلَقَكم وخلَقَ آباءَكم الذين مِن قَبْلِكم، ومالِكُكم ومدبِّرُ شؤونِكم، فكيف يمكِنُ أن يكونَ مَن سِوى اللهِ ربًّا. موسوعة التفسير

قال ابن جُزَي: (زاد موسى في إقامةِ الحُجَّةِ بقولِه: رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ؛ لأنَّ وجودَ الإنسانِ وآبائِه أظهَرُ الأدلَّةِ عندَ العقلاءِ، وأعظَمُ البراهينِ؛ فإنَّ أنفُسَهم أقرَبُ الأشياءِ إليهم، فيَستدِلُّون بها على وجودِ خالِقِهم).

قال ابن عثيمين: فموسى عليه السَّلامُ أُسلوبُه أُسلوبُ حَكيمٍ؛ أتَى أولًا بالربوبيَّةِ العامَّةِ للسَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ثمَّ أتى بالربوبيَّةِ الخاصَّةِ لفِرعَونَ الذي يدَّعي أنَّه رَبُّه، وقال: رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ؛ إشارةً إلى أنَّكم أنتم أتيتُم مِن آبائِكم، ومَن أتى مِن أبٍ فكيف يمكِنُ أن يكون ربًّا وهو مخلوقٌ مِن نُطفةٍ؟! فكأنَّه يقولُ: ارجِعوا إلى أصلِكم، فاللهُ تعالى ربُّكم أنتم الذين تَدَّعون أنَّكم أربابٌ، وربُّ آبائِكم الأوَّلينَ الذين أتيتُم منهم، فيُذَكِّرُهم بأصلِهم؛ لِيَذكُروا أنَّهم كانوا مُحْدَثِينَ، وأنَّهم لا يَصلُحونَ لأن يَكونوا أربابًا، وهذا مِن حُسنِ الجَوابِ، وفي الحقيقةِ كُلُّ جوابٍ يقولُه موسى فهو حُجَّةٌ قاطِعةٌ تَدمَغُهم، ولكِنْ -والعياذُ باللهِ- مَن لم يُوَفَّقْ للحَقِّ فإنَّه لا ينتَفِعُ به، ويَستكبِرُ عنه.